ضرورة التجسّد في الكتابات العربيّة المسيحيّة

كتاب «مختصر البيان في تحقيق الإيمان» الشّهير بالحاوي لابن المكين نموذجًا

القس عيد صلاح[1]

تعدَّدت الكتابات العربيّة للأقباط بعد الفتح العربيّ لمصر في أربعة مجالات وهي حسب وصف سمير خليل: التاريخ، القانون الكنسيّ، الترجمة وتفسير الكتاب المقدّس، اللاهوت المسيحيّ.[2] ومعظم الكتابات العربيّة المسيحيّة عبَّرت عن البعد القرينيّ (السّياقيّ)؛ فجاءت الكتابات في هذا السّياق واستخدمت المفردات والمضامين العربيّة، وأعطت نموذجًا للاندماج الثقافيّ

1 راعي الكنيسة الإنجيليّة بعين شمس-القاهرة، باحث دكتوراه في القانون-جامعة بني سويف، باحث غير متفرغ بمركز دراسات مسيحيّة الشرق الأوسط بكلية اللاهوت الإنجيليّة بالقاهرة.

2 يمكن الرجوع تفصيلاً إلى الأب سمير خليل اليسوعيّ، **الأدب المسيحي العربيّ في العصر العباسيّ**، من كتاب: **الدين والتعليم في العصر العباسيّ**، تحرير يونج ولاثام وسيرجنت ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم (القاهرة: المركز القوميّ للترجمة، 2016) 563- 578.

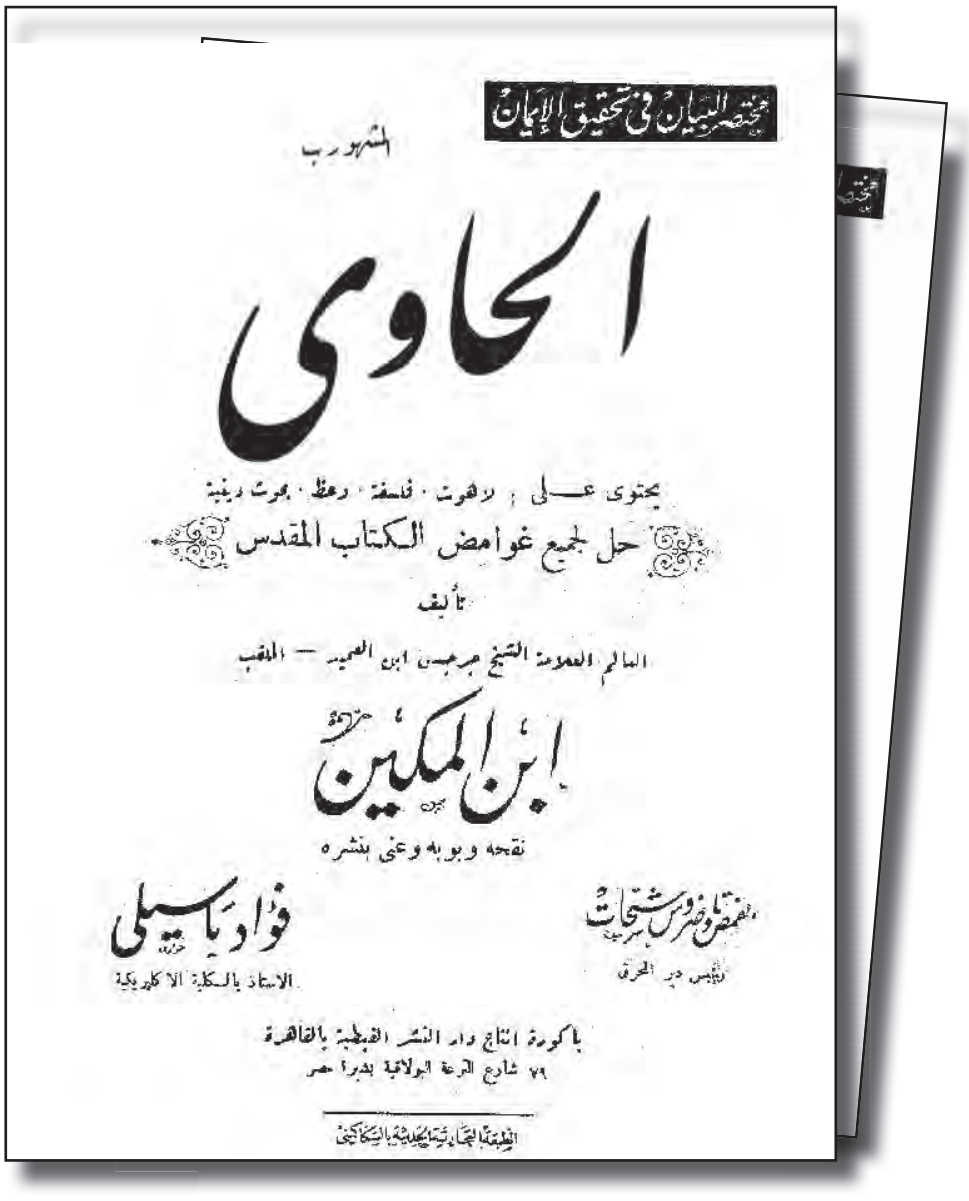

والتميز الدينيّ من ناحية الفكر والعقيدة. وكان الهدف من هذه الكتابات العربيّة هو الشّرح للرعيّة (المسيحيين)، وهذا يمثل البناء التعليميّ الدّاخليّ، والإجابة على الأسئلة التي تأتي في ظل القرينة الجديدة التي حملت معها أسئلة جديدة من الخارج نتيجة للحوار بين أتباع الدّيانتين: الإسلاميّة والمسيحيّة، والحوار الداخليّ بين أتباع الدّيانة الواحدة.[3]

3 عيد صلاح، **الكتابات اللاهوتيّة العربيّة للأقباط: كتاب البيان المختصر في تحقيق الإيمان الشهير بالحاوي لابن المكين نموذجًا**، محاضرة ألقيت في مؤتمر التراث والآثار القبطيّة في رحاب الحضارة الإسلاميّة التأثير والتأثر 8– 9 أبريل 2019 تحت رعاية: مركز الدراسات القبطيّة بمكتبة الإسكندريّة وكلية الآثار جامعة الفيوم.

يمثل القرن الثالث عشر الميلاديّ العصر الذهبيّ بالكتابة باللغة العربيّة للأقباط حيث يُعتبر عصر الموسوعات الكبرى، وجاء البناء عليه في القرن الرابع عشر حيث نقف عند كتاب: «البيان المختصر في تحقيق الإيمان» الموسوعة الشّهيرة بالحاوي للمكين جرجس ابن العميد الأصغر (تميزًا عن المكين الذي كتب كتاب المجموع المبارك في القرن الثالث عشر والذي سُمِّيَ بالمكين الأكبر)، وقد كُتِبَت لضرورة إيمانيّة؛ لتجيب عن الأسئلة الجديدة المثارة على السّاحة الفكريّة واللاهوتيّة في ذلك الوقت. هذه الموسوعة هي ابنة القرينة المشرقيّة، وبصفة خاصة ابنة الكنيسة المصريّة التي أعطت عبر تاريخها تميزًا في طرحها اللاهوتيّ.

تتعرّض الدراسة للتعرف على هذه الموسوعة بالبحث والدّراسة من حيث كاتبها، وسياقها الزمنيّ، ولما تحتويه منْ قضايا ومحتوى لاهوتيّ. ولا يغفل أبدًا الاستفادة منَ الطّرح اللاهوتيّ حيث لازالت الأسئلة مطروحة وتحتاج لإجابات جديدة. ولا يغلق الباب أبدًا أمام الاجتهاد اللاهوتيّ الجديد تلبية للواقع المعاش في تحدياته وأسئلته الجديدة. كما تتعرَّض لجزئية هامة من كلام ابن المكين عن التجسّد ولا سيما في غرض وجوب التجسّد.

المكين جرجس ابن العميد الأصغر

معلوماتنا عن هذا الكاتب الذي يأتي بعد المكين جرجس ابن العميد الأكبر، والمؤرخ الشهير، بمعدل قرن ونصف القرن من الزمان نستقيها من بيانات وردت في مخلفاته الأدبيّة. لقد كان طبيبًا وقسًّا وراهبًا متوحدًا من جبل طرَّة (جنوب القاهرة) وكان له أخ يعمل سكرتيرًا في وزارة الحربيّة، ومن ذلك يمكننا أنْ نستنتج أنَّ أسرته كانت منِ وجهاء المسيحيين في البلاد وأنه وأخاه قد نالا قسطًا وافرًا من التعليم.[4]

وفي دراسة هامة للأب وديع أبو الليف، يقول: «من البداية نلفت النظر إلى أنَّ الدارسين الأقباط، الذين كتبوا باللغة العربيّة، يخلطون ويوحدون بين اثنين من الكتَّاب: المكين جرجس ابن العميد المؤرخ (قرن 13)، وهو موضوع حديثنا وبين جرجس ابن العميد المكين (قرن 14)، وله مؤلف عقائديّ بعنوان «الحاوي» أو «مختصر البيان في تحقيق الإيمان» والمعلومات التي يقدمها أكثر الكتاب المعاصرين تنطبق على هذا الأخير، وتنسب إليه كذلك كتاب «التاريخ».[5]

يخلط كُتَّاب السنكسار في نسخته المنقحة التي أعدّتها اللجنة المجمعيّة للطقوس (طبعة دير السريان، الجزء الثاني، 9)، تحت يوم 1 برمهات، بين اثنين من الكُتَّاب، الأول هو «المكين جرجس بن العميد أبي الياسر بن أبي المكارم بين أبي الطيب» (القرن 13)، ومن أشهر مؤلفاته «المجموع المبارك» في التاريخ المدنيّ، والأخر هو «جرجس بن العميد المكين» وكان طبيبًا ثم راهبًا (القرن 14)، اشتهر بواسطة كتابه «مختصر البيان في تحقيق الإيمان» المعروف بالحاوي، وهو كتاب عقائديّ، ويلقب هذا بالأصغر تميزًا له عن «المكين جرجس بن العميد» المؤرخ، الذي يلقب بالأكبر.[6]

سبب الكتابة:

وعن غرض وهدف الكتابة يقول جورج جراف: «الكتاب الأول الذي أهداه الكاتب إلى أمته القبطيّة وكنيسته هو مؤلَّف لاهوتيّ ذو قيمة أدبيّة كبرى عنوانه «الحاوي المستفاد» ثم نجد عنوانًا أصغر تحته هذا نصُّه: «مختصر البيان في تحقيق الإيمان» يتضمن الكتاب دفاعًا عن التعاليم المونوفيزيقيّة في لغة كلاسيكيّة منتقاة الألفاظ ومعتَنى بها، ويعالج الأمور بطريقة مستوفاة واضحة مما يشهد لصاحبه عن تكوين لاهوتيّ وأدبيّ منقطع النظير. وهو كما يروي في مقدمته المسهبة، يحارب مجموعتين من الأعداء في عصره: أهل التفريط ممن ينكرون لاهوت المسيح تمامًا، وأهل الإفراط ممن لا يعتقدون بوقتية

4 جورج جراف، **تاريخ الأدب العربيّ المسيحيّ: الأقباط**، ترجمة الأب د. كامل وليم، نسخة بخط اليد، 292. عن ابن المكين يمكن الرجوع إلى مدحت حلمي «**العالم اللاهوتي المكين جرجس بن العميد الأصغر ونص مرثية تأبينه سنة 1322م**» مجلة التراث العربيّ المسيحيّ (Egypt, July 2017) JACI–CCF Issue 3، 301–314، إسحق إبراهيم الباجوشيّ، «**مخطوط كتاب نظم الجوهر في الرد على القضاء والقدر**» في مجلة التراث العربيّ المسيحيّ 50 –27 (Egypt, July 2015) JACI–CCF Issue 1)

5 وديع الفرنسيسكانيّ، **المكين جرجس بن العميد وتاريخه المصادر والمراجع والسيرة**، محاضرة في الندوة السابعة للتراث العربيّ المسيحيّ 25– 26 فبراير 1999.

6 شريف رمزي، **معترف من القرن العاشر الواضح بن رجاء سيرته وأعماله** (القاهرة: المؤلف، 2019)، هامش رقم 100 في الصفحة 51.

جورج جراف

الطبيعة الإنسانيّة في شخص المسيح وخلقتها، وذلك لا يعبدون ما هو مخلوق.[7]

وفي مُقَدِّمَةِ المؤلفات العربيّة المسيحيّة نجد أنَّ المؤلف كان يدوِّن سبب تأليفه، وفي هذا السياق نشير إلى كاتب ولاهوتيّ مصريّ آخر وهو ابن المكين، الّذي، كَتَبَ في مقدمة كتابة الشهير بـ«**الحاوي**» وهو عبارة عن موسوعة لاهوتيّة في علم اللاهوت النظاميّ Systematic Theology حسب تعبيرنا المعاصر، يقول: «فإنَّه لما كان في زماننا هذا، **اختلاف** في البيعة الأرثوذكسيّة بين أبنائها، وارتكاب **أهوية فاسدة** لا توافق قواعدها وبناءها، في حقيقة التجسّد الممجد، يؤول الحال فيها إلى القول **بما لا يصلح اعتقاده، ولا يجب سلوكه واعتماده**... ثم **تبلبلت** الآراء في الاعتقادات، ووقعت **المنازعات والمعاندات**».[8]

ويواصل بالقول: واستعفيت من الكلام فيما يتعلق بقواعد الاعتقادات. لعلمي بتقصيري وضعفي عن

7 جورج جراف، **تاريخ الأدب العربيّ المسيحي: الأقباط**، ترجمة د. الأب كامل وليم نسخة بخط اليد، ص 294.

8 ابن المكين، **الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي** لابن المكين الجزء الأول، إعداد راهب من دير المحرق (أسيوط: دير السيدة العذراء-المحرق، 1999م)، 26.

النهوض والصعود في هذه الدرجات، لما استحوذ على أهل زماننا من تراكم الظلمات. ولأنَّ السباحة في هذا البحر الواسع تصلح لمن شد ساعده وامتد باعه، وكان من ذوي الاجتهاد وأهل البراعة. ونحن اليوم فُقِدَ مِنْ زماننا نور العلم ودُثِرَ، وتمَّ على الرئيس والمرؤوس كما هو مكتوب: «أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة». فلا تستمطر مطرًا في غير زمانه. واقتن من الزمان حسب إمكانه.[9]

وفي الفصل الخاص بالصليب يكتب ابن المكين: «إنَّ الذين ليس لهم إلمام بلطافة العقليّات وشرف الإدراكات. والترقي إلى ذروة الروحانيّات واستخلاص جواهرها من أعماق بحارها الزاخرة. حيث يسمعون كلام المذهب المسيحيّ في معنى الصليب وحقيقته يسخرون بالمسيحيين ويطلقون الألسنة في تسفيههم اتباعًا لأصولهم. فأردت تدوين هذا الفصل ليقف عليه من لعلّه من المؤمنين يسمع كلام بعض المخالفين للتعليم الإلهيّ المسيحيّ وأسرار صليبه الممجد المقدّس».[10]

الأزمة التربويّة:

يرصد ابن المكين أزمة تربويّة في الافتقار إلى التعليم، وعدم قيام الرعاة بواجباتهم فيقول: «ولم يخفَ عنك أنَّ الرعاية ما نفرت من رعاتها ولا سلبتها اللصوص من مجدها وغناها وحياتها إلا لعجز رعاتها عما أوجبه الله عليها، فتناهشتها الذئاب من بين أيديها ولولا خيفة الإطالة والإسهاب لذكرت ما قِيل، وما يُقال، وما يلزم الرعاة في هذا الباب وإنْ كان معلومًا عند ذوي الألباب».[11] ولذلك يرد في كتابه هذا عن وجوب إقامة المعلمين في البيعة المسيحيّة وما يجب عليهم.[12]

محتوى الكتاب

حسب توصيف جورج جراف في كتابه تاريخ الأدب العربيّ المسيحيّ لهذه الموسوعة «كتاب البيان

9 المرجع السابق، 27، 28.

10 المرجع السابق، 304.

11 المرجع السابق، 28

12 ابن المكين، الموسوعة **اللاهوتية الشهيرة بالحاوي لابن المكين الجزء الأول**، مرجع سبق ذكره، والكلام عن أهمية التعليم والمعلمين في الكنيسة، 148-167.

المختصر في تحقيق الإيمان» الشهير بالحاوي، فيشير إلى إنَّها تنقسم إلى قسمين، هما:

القسم الأول:

يتألف من خمسة فصول (ثلاثة فقط في الطبعة) ينقسم كلٌّ منها بدوره إلى 3 مقاطع يعرض في كل مقطع التعليم الإيجابي ثم يقدم اعتراضات الخصوم والرد عليها. يدعم عادة معالجته للمسائل والردود بأقوال من العهد الجديد [والقديم]، ويستند في البراهين الفلسفيّة العقليّة على فخر الدين الرازي الفيلسوف المسلم مكررًا إيّاها، أما في شرح الكتب فهو يستند على النسطوريّ أبي الفرج عبد الله بن الطيب. ولكي يبعث الحيويّة في شرحه فهو يلجأ إلى قصص من الآداب الرهبانيّة البناءة ومن بينها روايات عن ماني ومناقشاته مع أسقف مسيحيّ وشخص أعمى في حضرة ملك الفرس وعن موته مصلوبًا وفقًا لرأي التقليد العربيّ. أمّا الموضوعات الرئيسية للفصلين التاليين فتدور حول النفس العاقلة، الملائكة الأخيار والأشرار، إلزام الشريعة، وضرورة الصلاة (خاصة الربيّة)، وأبدية وعقوبة الجحيم.[13]

القسم الثاني:

يشمل القسم الثاني 6 فصول يتألف كل منها ثلاث رؤوس (مقاطع) كتبت بعناية تامة بالترتيب المنطقيّ ويعالج مجموعة من القضايا والصعوبات المتعلقة بالأحداث والكلمات الكتابيّة خاصة ما يرتبط بشخص المسيح منها، ويتناولها بالتفسير. كما يتطرق إلى الحديث عن الفردوس والموت الذي جاء نتيجة المعصية الأولى (1/ 2)، إنكار اليهود مجيء المسيح (3/2)، عادات خاصة بالملكيين (4/ 1) الميراث لدى أبي الفرج بن عبد الله الطيب النسطوريّ الذي يعارض المؤلف تعليمه، بصراحة، معارضة جذريّة (4/ 2)، السبب الذي من أجله أعطى التلاميذ جسده ودمه منفصلين (5/ 3)، الصوم الأربعينيّ وتحديد موعده (4/ 1). وتقدم الخاتمة نظرة تاريخيّة عامة حول المجامع مع شرح قانون الإيمان.[14]

القضايا المسيحيّة الكبرى:

تحتوي موسوعة الحاوي لابن المكين «البيان المختصر في تحقيق الإيمان» على شرح للقضايا المسيحيَّة الكبرى: التجسّد، لاهوت المسيح، الثالوث، الصليب، الوحي، التّفسير، الترجمات، النصّوص الكتابيّة الصعبة وكيف نفهما؟ النقل والعقل... إلخ. كَتَبَ ابن المكين هذه

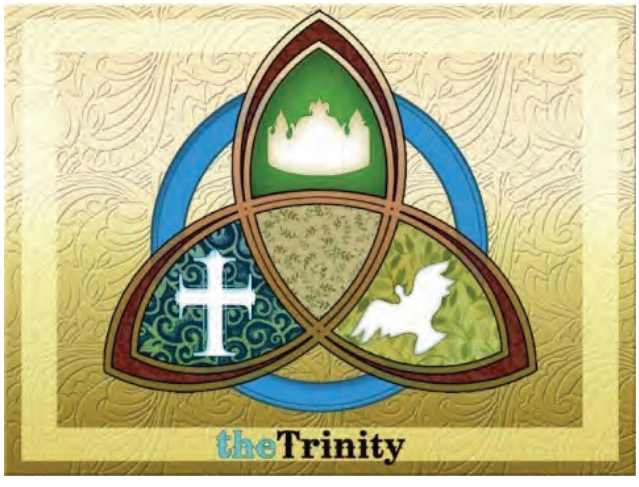

الموسوعة اللاهوتيّة التي وضع عنوان لها «**البيان**» لتكون متاحة للكافة لتجيب على الأسئلة اللاهوتيّة (الفقهيّة) في ظل السّياق الإسلاميّ العام والفروق العقائديّة المسيحيّة-المسيحيّة، ودحض الهرطقات، وهو بذلك يعبر عما يؤمن، وما يعتقد.

وهذه هي السمة الغالبة في الكتابة العربيّة المسيحيّة، وهي كتابة لأجل تنوير الرعيّة وبنائهم روحيًّا وفكريًّا من جهة الإيمان والعقيدة، ولا سيما أنَّ المسيحيّين العَرَب باتوا يعيشون في ثقافة جديدة، فأثارت هذه الثقافة أسئلة كثيرة، فكان أولى الأمور هو «**التفسير والبيان**» كما يقول ساويرس ابن المقفَّع. وهذا ما جَعَلَهُ يكتب: «**الدُّر الثمين في إيضاح الدين**»، أو المسمَّى بـ«**الإيضاح**»، وكتاب: «**كتاب مصباح العقل**»، «**البيان المختصر في الإيمان**» والذي يتشابه مع عنوان ابن المكين «**البيان المختصر في تحقيق الإيمان**».

وأمام كتب الرد على النصارى[15] التي تفند المعتقدات المسيحيّة جاءت كتب البرهان والبيان والإيضاح في شرح وتفسير الإيمان المسيحيّ في بيئة مغايرة. ويمكن أنْ نلاحظ ذلك من خلال العناوين للمصنفات الأدبيّة

13 جورج جراف، **الأدب العربيّ المسيحيّ الأقباط**. مرجع سابق، 294

14 المرجع السابق، 295.

15 يمكن الرجوع إلى كتاب عبد المجيد الشرفي في كتابه: «**الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الربع/ العاشر**» صار عن دار المدار الإسلامي، 2007.

العربيّة التي نجدها غارقة في اللغة العربيّة وعلى سبيل المثال كتابه البيان المختصر، والبيان كلمة عربيّة استخدمت في القرآن الكريم في سورة آل عمران «هَٰذَا **بَيَانٌ** لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» (138)، وهو نفس النهج الذي اتخذه الكتّاب العرب في عناوين كتبهم على سبيل المثال لا الحصر كتاب «**البرهان**» لعمار البصريّ ونجد هذه الكلمة في سورة النمل «قُلْ هَاتُوا **بُرْهَانَكُمْ** إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (64). **البرهان والبيان** هما تعبيران عن الإيضاح واليقين، وهذا ما شغل الفكر العربيّ المسيحيّ في ذلك الفترة من تاريخها، وذُكِرَ على قائمة إبرازاتهم، وكان ذلك همَّهم الأول.

بعض من التأثير والتأثر:

في كتاب البيان المختصر في تحقيق الإيمان نجد تأثيرًا واضحًا على ابن المكين ظهر ذلك في أمرين: استخدام المفردات ومناقشة القضايا ذات الاهتمام المشترك، ففي استخدامه للمفردات العربيّة على سبيل المثل يستخدم كلمة «السُّنَّة» مكان التقليد فيقول: «السُّنَّة الأرثوذكسيّة».[16] وفي تناوله للآية الواردة في (سفر الأعمال 10: 35) «كل أمة تعمل البر مقبولة أمام الله» وضعها في سياقها العربيّ، وهي: «كل أمة تعمل البر وتأمر بالمعروف وتنهَى عن المنكر مقبولة عند الله».[17] وفي القضايا ذات الاهتمام المشترك ناقش قضية القضاء والقدر وأفرد لها مساحةً كبيرةً في النقاش، بل وناقش آراء الفلاسفة مثل أرسطو وأشار إلى كتابه «السياسة في تدبير الرئاسة». وناقش آراء [شيوخ الإسلام] مثل: البقلاني، والحسن الأشعري، وأشار إلى أقوال المعتزلة. وهذا يبين سعة اطلاعه على أقوال الغير المختلف معهم ومناقشة آرائهم.[18]

وقد هضم الكاتب المسيحيُّ في مصر الأدبَ العربي وهو يكتب في أمور لاهوتيّة؛ فنجده يقتبس كثيرًا من الشعر العربيّ في أكثر من مرة، وهذا يبيّن سعة اطلاعه:

يغوص البحر مَنْ طلب اللآلئ ومَنْ طلب العلى سهر الليالي

ومَنْ طلب العلى بغير كدٍّ
أضاع العمر في طلب المحالِ[19]

وفي موضع آخر يقول:

بالعلم تحيا نفوس قط ما عرفت
من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
العلم للنفس نورًا تستدل به
على الحقائق مثل النور للعين[20]

وفي مناقشة بعض الأمور اللاهوتيّة مثل الوحي والأنبياء على سبيل المثال يقول: الأنبياء معصومون في كتاباتهم وليس في أشخاصهم: «إنَّ النبيّ في الوقت الذي يتنبأ فيه وينطق عن الله تعالى حين يلقنه روح النبوة ويحركه الروح القدس على الكلام فيما يختار البارئ ذكره وظهوره للناس من المصلحة الحاضرة والمستأنفة فهو حالة قبوله الوحي وروروده عليه معصوم من الخطأ لا شك فيه. لأنَّ الروح المحرك له في حالة النطق بالوحي لا سبيل إلى تغليطه ولا يصح عليه السهو بوجه من الوجه لأنَّ الأنبياء الصادقين في وقت إلقاء الوحي إليهم من الله تبارك اسمه يكونون كمنزلة الآلة بين يدي الصانع ولم يكن فعلهم في ذلك الوقت بالإرادة أعني في ما ينطقون به لكن الروح القدس في ذلك الوقت يستعمله كما يستعمل الصانع الآلة عند الاحتياج إليها.[21]

حاولَ أنْ يضعَ صياغات لاهوتيّة باللغة العربيّة في مسائل لاهوتيّة كبرى، فهو يبدأ موسوعته اللاهوتيّة بوضع ما يُسمَّى بإقرار إيمان عن المسيح فيقول: «إنَّ علماء الشريعة المسيحيّة، وأصول البيعة الأرثوذكسيّة. يؤمنون ويعتقدون حقًّا ولا يرتابون في هذا الاعتقاد ولا يحابون أنَّهم إذا ذكروا اسم المسيح له المجد فيريدون به: إنَّه الإله الكلمة المعبر عنه بالابن الأزليّ ظهر متحدًا بالناسوت المأخوذ من الأحشاء المريمية بتدبير الروح القدس شيئًا واحدًا وأقنومًا واحدًا وهو الشخص المشار إليه بيسوع المسيح له المجد. وهو أحد الأقانيم الثلاثة أعني: الآب والابن والروح القدس. فيسوع المسيح له ولادتان: ولادة أزليّة وولادة زمنيّة. فالأزليّة لم تتغير عن حقيقتها بعد اتحادها بالزمنيّة. وكذلك الزمنيّة لم تتغير عن حدها بعد اتحادها بالأزليّة».[22]

16 ابن المكين، **الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي**، الجزء الأول، مرجع سابق، 26
17 المرجع السابق، 247.
18 المرجع السابق، 168– 194.
19 المرجع السابق، 67.
20 المرجع السابق، 132.
21 المرجع السابق، 144– 145.
22 المرجع السابق، 29.

وفي كلامه عن اللّه سبحانه وتعالى يقول: «فهذا اعتقاد المسيحيّين إنَّ اللّه جوهر واحد، لا فرق أن نقول اللّه أو الإله ذات واحدة آب وابن وروح قدس، إله واحد حي بروحة، ناطق بكلمته. فهذه الصفات الثلاث الذاتيّة لا يحتمل كمالها نقًا عن تثليثها ولا زيادة عليها».[23] وهذا ما أجمع عليه اللاهوتيّون العرب في شرحهم لعقيدة الثالوث: أنَّ اللّه موجود بذاته، ناطق بكلمته، حي بروحه. لذلك نجد في بعض الترجمات العربيّة المسيحيّة لسفر المزامير في القرن السادس عشر الميلاديّ، نجد البسملة كالتالي: بسم اللّه الخالق الحي الناطق.

طبعات كتاب البيان المختصر في تحقيق الإيمان:

صدرت الموسوعة محل الدّراسة في ثلاث طبعات مختلفة في القرن العشرين، وهي:

1. نشرة بطرس عبد الملك، كتاب مختصر البيان في تحقيق الإيمان الموسوم بالحاوي تأليف الشيخ التقي جرجس بن العميد الملقب بابن المكين، صدر في القاهرة 1906 ويقع في 244 صفحة يشمل المقدمة والفصول الثلاثة.[24]
2. نشرة دار النشر القبطيّة بالقاهرة (د. ت.) «مختصر البيان في تحقيق الإيمان المشهورة بالحاوي» تأليف العلامة جرجس بن العميد المقلب بابن المكين. على يد تاوضروس شحات وفؤاد باسيلي.[25]
3. ونشرة دير المحرق في أربعة أجزاء 1999، حقَّقها أحد رهبان دير المحرق، وقدم لها الأنبا ساويرس أسقف الدير، وهي ما زالت تحتاج لتحقيق علميّ أفضل مِنْ ذلك لما تستحقه مِنْ مكانة ومحتوى في تاريخ التفكير اللاهوتيّ العربيّ في مصر والشرق الأوسط.[26]
4. نشرة دكتور جورج حبيب بباوي في سلسلة التراث العربيّ المسيحيّ (1)، الكلية الإكليريكيّة بطنطا، إيبارشيّة الغربيّة، بخط اليد، تحت عنوان **المقدمة في التجسّد لجرجس بن العميد**، في 75 صفحة، بدون تاريخ، ولم يذكر هل هو حقَّقها أو نقلها من مخطوط مباشر أو أخذها عبر وسيط منشور.
5. **نشرت مجلة الكرمة باب «القضاء والقدر»** من كتاب الحاوي للعلامة جرجس بن المكين، مجلة الكرمة، العدد الخامس، 8 يناير 1905م، ص. 180– 186، ثم في العدد السادس، 8 فبراير 1905م، ص 209– 219.

لا يمكن اختصار الموسوعة اللاهوتيّة أو شرحها في دراسة قصيرة، ولكن الهدف من هذا العرض هو تبيان المشاركة اللاهوتية للمسيحيين باللغة العربيّة بكتاباتهم وأفكارهم في ضوء القرينة الجديدة التي أثارت أسئلة كبرى. مازالت الأسئلة مطروحة وباب الاجتهاد اللاهوتيّ مفتوحًا ليجيب على الأسئلة بلغة مفهومة، تنفض غبار الاغتراب، وتنهض الهمة، فالمستقبل مرهون بكيفيّة الإجابة على الأسئلة التي تشتغل بال الكثيرين. وهذه هي ضرورة وجود المسيحيين في الشرق الأوسط، ودورهم الفاعل في مجال الحوار الدينيّ.

قضية التجسّد قضية أساسية في التفكير القبطيّ-العربيّ المسيحيّ:

قضية التجسّد هي قضية محوريّة في التفكير العربيّ المسيحيّ، وهو يأتي على أساس قوي من تناول الكنيسة في قرونها الأولى هذه القضية الأساسيّة في الإيمان المسيحيّ مع إعادة شرحها في ظل الفكر العربيّ المغاير، فنجد أن هذه القضية تتصدر الكتابات العربيّة المسيحيّة في محاولة لشرح الإيمان المسيحيّ بلغة عربيّة.

على سبيل المثال لا الحصر نجد الكتابات الكرستولوجيّة القبطيّة العربيّة: ساويرس بن المقفع وهو أول كاتب مسيحيّ مصريّ يكتب باللغة العربيّة في الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة يفرد فصلين الثاني والثالث في كتابه «الدر الثمين في إيضاح الاعتقاد

23 المرجع السابق، 356.

24 جورج جراف، **الأدب العربيّ المسيحيّ، الأقباط**. مرجع سبق ذكره، 295.

25 الراهب القسّ أثناسيوس المقاريّ، **فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريّة الكتابات العربيّة الجزء الثاني** (القاهرة: 2011)، 838.

26 في نقد هذه النشرة يمكن الرجوع إلى عيد صلاح، قراءة نقديّة في **الموسوعة اللاهوتيّة المسمّاه بالحاوي لابن المكين القرن إنجاز ضخم يحتاج إلى مجهود كبير** (الهدى، العدد 1058، أغسطس 2005م) 18– 21.

في الدين»، ثم بولس البوشيّ في كتابه عن «التجسّد»، والصفي بن العسال في فصول مختصرة في «التثليث والاتحاد» فصول 7- 11، والمؤتمن ابن العسال في «مجموع أصول الدين ومحصول علم اليقين» فصول 23- 26. هذه الكتابات وغيرها الكثير حاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالتجسّد.

التجسّد عند ابن المكين نموذجًا

يبدأ ابن المكين في موسوعته الشهيرة بالحاوي كلامه عن التجسّد، ويعطي لها مساحةً كبيرةً من الكتابة، مناقشة الإيمان المسيحي ومحللًا لكافة التساؤلات حول التجسّد، سواء الحوار المسيحيّ-المسيحيّ بطريقة مباشرة، أو الحوار المسيحيّ-الإسلاميّ بطريقة غير مباشرة. ناقش ابن المكين قضية التجسّد وكافة الأسئلة المطروحة عليها، ولكن بصفةٍ خاصة تميز بالحديث عن وجوب تجسّد المسيح وضرورته، سنطرح فكرته، والقرينة اللاهوتيّة لهذه الفكرة، ثم نقدم نقدًا لها.

من الثوابت والقواعد اللاهوتيّة عند ابن المكين هو أنَّ الإنسان هو صورة الله، كائن حر مريد إلى أبعد مدى، لانَّ الله حر، والإنسان يتحرك وفق إرادته الحرة وبالتالي يرفض القضاء والقدر (قد أفرد لهذه القضية فصلاً في كتابه). فالله حر مريد في كل ما يفعل، ولأنَّ الله هو خير مطلق، فهو جوَّادٌ جودًا مطلقًا؛ وعليه لا يمكن أنْ يتوقف جود الله على حدث عارض، فيرى ابن المكين أنَّ التجسّد ضرورة حتى لو لم يخطئ أدم.[27] ومن خلال هذا المفهوم نعرض لهذه الفكرة عن ابن المكين.

وجوب تجسّد المسيح وضرورته:

ناقش ابن المكين قضيةً تميَّز هو بها في التراث العربيّ المسيحيّ, حول التجسّد, حول ما يُسَمَّى بـ«استقلال التجسّد عن الخطية»، حيث يقول: القولُ بأنَّ خطية آدم هي السَّبب في التجسّد هو من أشنع القولِ وأفسده»[28]، ويناقش بن المكين في كتابه الحاوي هذه الفكرة بالقول: «وينبغي أنْ نذكر هنا لاسيفاء البحث فيما يتعلق بالتجسّد المجيد أنَّه لا يَصِحَّ أن يُقال إنَّ آدم أب البشر لو لم يخالف الوصية ويخرج من الفردوس لم يكن التجسّد المجيد فهذا الاعتقاد خاطئ. إذ يجب أنْ نعلم أنَّ التجسّد كان أمرًا ضروريًّا في ظهوره لخليقته. وإنْ قيل إنَّه كان بسبب آدم أو لعلَّة خارجيّة أو لحادثة من الحوادث خارجة عن ذاته تعالى. كان ذلك قدحًا (عيبًا) في جُودِه تعالى».[29]

ويواصل ابن المكين شرح الفكرة بالقول: «ويترتب على زَعمهم هذا أنَّ التجسّد كان بطَريق عَرَضِيٍّ صادر عن خطيَّة آدم، وفي الحقِّ لا يجب أنْ يُوقف جُود الله تعالى على شرط حادث؛ لكن لمَّا كان من كمال جوده أنْ يجُود بنهاية الجُودِ بأكمله «وهو ذاته تعالى» فلذلك أظهر كمال جوده بواسطة تمكُّن البشر من مباشرتها والقرب منها. لو تمّ منع ظهور الله متجسِّدًا وما نتج عنه من جزيل النَّفع مع القدرة على إمكانيته، لكان يُعزّى ذلك إلى أحد أمرين إمَّا ضَنًّا (بُخلًا) وإمَّا عجزًا، وعلى هذا يكون الله غير مستحق اسم «الجوَّاد المطلَق الجود».[30]

ويؤكِّد ابن المكين على أنَّ «ظهوره تعالى بهذا السر العجيب كان من الضروريات، وهذا عقليّ ونقليّ- أما عقليّ فقد تقدم ذكره- وأما نقلي فقد أشارت إليه رسله المكرَّمون وتلامذته المؤيَّدون. وقد ذكره بطرس الرسول في جملة رسائله الجامعة فقال: «عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ، بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ خَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ، مَعْرُوفًا سَابِقًا قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» (1بط 1: 17- 20)[31] فظهر من كلام هذا الرسول أن التجسّد كان مزمعًا قبل ظهور العالمين. والرسول بولس أيضًا يشير إلى هذا السر أيضًا في كثير من

27 رأفت موسى، **المحتوى اللاهوتيّ لكتاب الحاوي لابن المكين**، المركز الأرثوذكسيّ للدراسات الأبائيّة، يونيو 2019 متاح على https://www.youtube.com/watch وتمَّ الطلاع عليه في 1 ديسمبر 2020.

28 القمص تاوضروس شحات وفؤد باسيلي، **مختصر البيان في تحقيق الإيمان المشهور بالحاوي** (القاهرة: دار النشر القبطيّة بالقاهرة، د. ت.)، 18.

29 المرجع السابق، 17.

30 المرجع السابق، 17.

31 معظم النشرات المحققة لموسوعة الحاوي لابن المكين أخذت الاقتباسات الكتابيّة من ترجمة فانديك (ق 19م)، وبالتالي حرمتنا من الصياغات والترجمات العربيّة للكتاب المقدّس ولا سيما التي كانت منتشرة في القرن الثالث والرابع عشر الميلاديين.

رسائله حيث يقول: «وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ» (أف 3: 9)».[32]

ويخلص ابن المكين على هذا الطرح بالقول: «وإذا صح القول عند التحقيق أن ظهور هذا السر كان أمرًا مزمعًا نقلًا وعقلًا قبل كون العالمين. فلا يجب أن يُقال إنَّ سقطة آدم ومخالفته كانت وجهًا من الوجوه في ظهوره. وإلَّا لزم أن يكون جوده قد ظهر بطريق العَرَض على شرط حادث. وهذا من (أشنع القول وأفسده). فجوده الذي أظهره بواسطة تجسّد كلمته هو بالذَّات لا بالعَرَض».[33]

ويبرهن بالقول: «ثم نقول اعْلَمْ أن كُل ما كان ظهوره على شرط حادث لَزِمَ منه أنَّه إذا ارتفع ذلك الشرط صار ارتفاعه كالعِلَّة والمعلُول. فلو فرضنا أن آدم لم يُخالف ولم يَتَعَدَّ الوصيَّةَ «وهذا كان ممكنًا له» فكان يترتب على ذلك بُطلان التجسّد وارتفاعه. وكان يلزم منه عدم النفع بالخيرات التي صدرت عن ظهور التجسّد. وكان يُرد على جوده تعالى التأويل المتقدّم (وهو الضَّنّ والعجز) وحاشا لله من ذلك».[34]

ويواصل بالقول: «وهو أنَّه تعالى من صفاته الجود، والجوّاد من لوازم جوده أنْ يجود بأشرف موجود، وإنْ تأخر عن ذلك كان قدحًا في جوده، ولا موجود أشرف من جوهر لاهوته، ولما كان من الممتنع نظره مجردًا إذ لا يمكن مشاهدته بعين الحس، فظهر متحدًا بناسوت، خالي من سائر الشبهات والنقائص ليمكن رؤيته من فعله، كما قال: مَن رآني فقد رأى الآب».[35]

إنَّ أهمّ فكرة ناقشها الكُتَّاب العَرَب المسيحيّون فيما يخصّ المسيح هي فكرة «**جود الله**»، وهذه الفكرة تشدّد على أنَّ تأنُّسَ المسيح هو ثمرة جود الله الكريم الّذي جاد بأفضل ما عنده، أي ذاته. وهذه الفكرة تتلخّص بما قاله الفيلسوف أبو زكريّا يحيى بن عدي[36]: «إنّ أفضل الجائدين هو الجائد بأفضل الذوات. وأفضل الذوات ذات البارئ. فلزم جودُ البارئ بذاته علينا، وهذا كان باتّصاله بنا»[37] هذا يعني أنّ السبب الوحيد الّذي دفع اللّه نحو العالم هو جوده، وثمرة هذا الجود كان الاتّحاد بالإنسان، أي عندما صار كلمة اللّه إنسانًا، واتحادنا نحن به. الجدير بالذكر أنّ يحيى بن عدي اختار لفظ «**الجوّاد**» لأنّها أقرب عبارة فلسفيّة إلى المفهوم اللاهوتيّ المسيحيّ القائل بأنّ «**اللّه محبّة**».

وقد ناقش بولس البوشي أسقف مصر في القرن الثالث عشر الميلادي فكرة جود اللّه وربطها بضرورة التجسّد، فيقول: «فإن قالوا: ما الذي اضطره للتجسّد؟ فجوابه: «جوده وتفضله»، يُقال لهم: ومَن الذي اضطره لخلقه آدم وذريته؟ فإنْ سألوا عن ذلك يُقال لهم: «جُودُه وتفضُّلُه». فإن قالوا: أهو لم يُعرَف أنَّه جواد متفضِّلٌ، إلا بخلقه آدم وذريته؟ يُقال لهم: «اللّه جوّاد متفضّل لم يزل في جوهريّته كما يليق بصلاحه. بل أظهر التفضّل بالفعل، لمَّا خلق البَريّة. ليس لحاجة منه إليها، بل تفضّلاً منه عليها. ومن العدم إلى الوجود أحضرها، وهيّأ لها ما تحتاج إليه، لكرمه وجوده، ليُعرف أنّه متفضّل منّان وهكذا تعاهد البَريّة بالخلاص، ليس لحاجة منه إلى التجسّد، بل تفضّلاً منه عليها» .وهكذا تعهد البريَّة بالخلاص، ليس لحاجة منه إلى التجسّد بل تفضلاً منه عليها لما هي مضطرة إليه.»[38]

وفي نفس الاتجاه سار الصفي أبو الفضائل بن العسال، في القرن الثالث عشر، بالقول: «ذكرت العلماءُ للاتّحاد (التجسّد) أسبابًا كثيرةً، وهي ترجعُ إلى قسمَين: الأوّلُ من جهة البارئ، وهو الذي لأجله أوجَدَنَا، وهو جُودُه، هو الذي لأجله اتّصلَ بطبيعتنَا، لتكميلنا، وهو تكميلُ جوده. والدّليلُ على وجوب الاتّحادِ أنّ البارئ -تعالى- أفضلُ الجائدين، وأفضلُ الجائدين هو الجائدُ بأفضلِ الذّات، وأفضلُ الذّوات ذاتُ البارئ، فَتَكَرّمَ البارئُ بجودِه بذاته علينا، وهذا كان باتّصاله بنا. والدّليلُ بَانَ وهو أنّ اتّصَالَه بنا ممكنٌ، لأنّ المانعَ من الاتّصالِ المضادةُ، والخالقُ ليس هو ضدٌّ مخلوقِه، إذ الضّدُّ يُعْدِمُ ضدَّه، لا يُوجِدُه، وقد

32 القمص تاوضروس شحات وفؤد باسيلي، **مختصر البيان في تحقيق الإيمان المشهور بالحاوي**، مرجع سابق، 17.

33 المرجع السابق، 18.

34 المرجع السابق.

35 ابن المكين، موسوعة الحاوي، مرجع سبق ذكره، 218.

36 من كبار فلاسفة القرن العاشر الميلاديّ. وُلد سنة 893 في مدينة تكريت، تتلمذ على يد أبي نصّر الفارابيّ، أستاذ مسكويه وأبي حيان التوحيديّ. وهو ينتمي إلى الكنيسة السريانيّة، وتوفّي سنة 974.

37 سمير خليل اليسوعيّ، «**التراث العربيّ المسيحيّ القديم والإسلام**»، في كتاب **المسيحيّة والإسلام مرايا متقابلة** (بيروت: جامعة البلمند، منشورات مركز الدراسات المسيحيّة الإسلاميّة، 1996)، 84-85.

38 بولس البوشي، **مقاله في التثليث والتجسّد وصحة المسيحية** (أسقف مصر سنة 1240) تحقيق الأب سمير خليل اليسوعيّ (بيروت: المطبعة البوليسيّة، 1983)، 205- 207.

قالَ في التّوراة: «إنّه يَخلقُ الإنسانَ شَبَهَهُ.» والمشابهةُ مُقرّبةٌ للاتّصال. وإذ كان اتّصالُه بنا ممكنًا، وكان لنا فيه غَايةُ الشّرف، وله فيه كمالُ الجود، ولا يمنعُه لا العجزُ، ولا البُخلُ، وهما من جهاتِ النّقص، فهو يتعالى عنهمَا، فيجبُ اتّصالُه بنا».[39]

وبالتالي يقول ابن المكين إنَّ «التجسّد الممجد أوسع فضله ورحمته عمومًا وخصوصًا[40]. وهكذا فإنَّ الإنعامات (البركات) التي حصلنا عليها من التجسّد أكثر من غفران الخطية أو الفداء مثل الاتحاد بالله والسكنى في الله. المفتاح هو الجود والحرية».[41]

جذور الفكرة:

لماذا صار الله إنسانًا؟ أو **Cur Deus Homo** باللاتينيّة كما صاغها أنسلم أسقف كانتربري في القرن الحادي عشر الميلاديّ. إجابة أنسلم كانت إنَّ الله قد تجسَّد كيما يفدي الإنسان من الخطية مؤسِّسًا بإجابته تلك ما سيعرف بالنظرية القضائيّة للترضية **Juridical theory of satisfaction** إلا أنَّ بعد قرنين من الزمان، وتحديدًا في القرن الثالث عشر الميلاديّ، خرج دانس سكوتس ليتحد إجابة أنسلم معلنًا إنَّ التجسّد الإلهيّ مستقل عن السقوط الإنسانيّ.[42]

ويتتبع هذه الفكرة في مقالته التاسعة للأب جورج فلورفسكي الواردة في كتابه التجسّد والفداء، فقد ناقش هذا الموضوع الذي جعله عنوانًا، وهو: لماذا يصير الله إنسانًا؟ دافع التجسّد الإلهيّ. يقول فلورفسكي يبدو أنَّ روبرت من دوتش **Rupert of Deutz** (مات عام 1135 القرن الثاني عشر) هو الأول بين اللاهوتيين في العصر الوسيط أو من أثار وبشكل رسمي السؤال عن دافع التجسّد الإلهيّ، وكانت نظريته أو قناعته أنَّ التجسّد الإلهيّ يخص التصميم الأصيل للخلق ومن ثم كان مستقلًا عن السقوط، كان التجسّد الإلهيّ، بحسب وتفسيره ورؤيته، هو تمام وكمال تحقيق غاية الله الأولى من الخلق أصلاً، وهو هدف في ذاته، وليس مجرد علاج بالفداء والخلاص للفشل البشريّ.[43]

وكان أونوريوس أسقف أوتون **Honorius of Autun** (مات عام 1152 في القرن الثاني عشر) يتبع نفس القناعة. أما علماء القرن الثالث عشر العظماء مثل إلكسندر أسقف هيلز، وألبرت ماجنوس، فقد تبنيا فكرة التجسّد مستقلًا عن السقوط كأكثر الحلول أقناعًا وموائمة للمشكلة.[44]

أما دينس سكوتوس **Duns Secotus** 1266–1308 فقد شرحَ وفسَّر المفهوم بأكمله وبمعزل عن السقوط بمنتهى الحيطة والحذر والرصانة والمنطقيّة. فإنَّ التجسّد الإلهيّ بالنسبة له وبمعزل عن السقوط لم يكن مجرد افتراض. موائم ومناسب، بل بالحري هو افتراض عقائديّ لا يمكن الاستغناء عنه. إنَّ تجسّد ابن الله بالنسبة له هو السبب ذاته لظهور فعل وتدبير الخلق. وإلا، هكذا فكر هو، فإنَّ هذا الفعل الفائق الذي اتممه الله يفترض أنَّه كان مجرد شيء ما عارض وحادث أو «ظرفي».[45]

أما عن السقوط فيقول: «مرة أخرى، فإن كان السقوط هو علة وسبب ما سبق أن عينه الله لمجيء المسيح، لنجم تبعًا لذلك، إن كان (العمل الأعظم لله) هو مجرد فعل عارض وحادث ظرفي، ومجدًا فإنَّ مجد الكل لن يكون بهذه الكثافة التي لمجد المسيح، ولبدا الأمر غير معقول ولا منطقيّ التفكير فيه أن الله سبق وأتم مثل هذا العمل بسبب خير آدم أو عمله الصالح، إن لم يكن آدم قد أخطأ إن السؤال بالنسبة للباحث دنس سكوتوس كان بالضبط حول أمر «سبق التعيين»

39 وجيه يوسف، مختارات من: الصّفيّ أبو الفضائل بن العسّال (القرن الثّالث عشر للميلاد)، متاح على صفحة التّراث العربيّ المسيحيّ، https://www.facebook.com تمَّ الاطلاع عليه في 20 توفمبر 2020.

40 القمص تاوضروس شحات وفؤاد باسيلي، **مختصر البيان في تحقيق الإيمان المشهور بالحاوي**، مرجع سبق ذكره، 31.

41 رأفت موسى، **المحتوى اللاهوتيّ لكتابات ابن المكين**، مرجع سابق.

42 صموئيل طلعت أيوب، **التجسّد غير المشروط The unconditional Incarnation** (د. ن.، يناير 2018)، 13. ويمكن الاطلاع أيضًا على دراسة: **Why Did God Become Man? The Unconditional of the divine Incarnation. Redemtion or Defication Anselm's Questions, «Why Did God Become Man?' and Nicolas Cabasils by Panagiotes Nellas** (1986+)، ويمكن أيضًا الرجوع إلى دراسة هامة للميتروبوليت إيروثيوس فلاخوس، **استقلال التجسّد الإلهيّ عن سقوط الإنسان**، تعريب الأب أنطوان ملكي، متاح على موقع https:// www.orthodoxlegacy.org وتمَّ الاطلاع عليه بتاريخ 30 نوفمبر 2020.

43 جورج فلورفسكي، **التجسّد والفداء موضوعات لاهوتيّة** ترجمة جرجس كامل يوسف (القاهرة: جذور للترجمة والنشر والتوزيع، 2015)، 105.

44 المرجع السابق.

45 المرجع السابق، 106.

أو الهدف الإلهيّ أي ترتيب وفق الأفكار التي في المشورة الإلهيّة للخلق. وكان المسيح ذلك المتجسّد هو أول موضوع وهدف مشيئة الله الخالقة، ولكان لأجل المسيح أي شيء آخر قد تم خلقه لأجل الجميع. «إنَّ تجسّد المسيح لم يكن قد تمَّ النظر فيه هكذا عرضيًّا أو بشكل طارئ، بل قد تمَّ النظر إليه كغاية فورية وحاسمة بواسطة الله منذ الأزل.[46] وهذا التأكيد الرئيس من جانب دينس سكوتوس كان حول السمة غير المشروطة والأبديّة للقانون الإلهيّ لسر التجسّد وقد رأيناه في المنظور الكلي لفعل الخلق».[47]

وقبل هؤلاء جميعًا ناقش اللاهوتيّ البيزنطي مكسيموس المعترف (580– 622)، فقرة هامة فيها نفس الرؤية اللاهوتيّة التي تنادي باستقلال التجسّد عن السقوط، حيث يقول: «إنها النهاية المنشودة التي لأجلها كل شيء قد خلق، إنَّها الغاية الإلهيّة التي كانت في فكر [الله] قبل بدء الخليقة، والتي ندعوها بالغاية المنشودة [التي هي الاتحاد الأقنومي بين الإلهيّ والإنسانيّ في المسيح]. كل الخليقة وجدت لأجل هذه الغاية لكن تلك الغاية نفسها لم توجد لأجل شيء مخلوق. ولأن هذه الغاية كانت في فكر الله [منذ الأزل]؛ هو أنتج طبيعة الأشياء [في الزمن] إنَّها حقًّا تحقيق العناية والتدبير. التي خلالها تجمعت كل الخليقة إلى الله. إنها السر الذي حدَّد الأزمنة، خطة الله المدهشة، الموجودة قبل كل زمان. الرسول الذي هو نفسه الجوهر كلمة الله، صار إنسانًا لتحقيق هذه الغاية».[48]

يعلق صموئيل طلعت أيوب بالقول: «في هذا المقبوس السابق يؤكِّد مكسيموس المعترف على أنَّ غاية الخلق هو اتحاد الإنساني بالإلهيّ، وما كان لهذا أنْ يتحقق دون التجسّد، لذلك فإنَّ مكسيموس المعترف يعتبر التجسّد هو الغاية الأولى والمطلقة لفعل الخلق الإلهيّ».[49]

نقد طرح ابن المكين لاستقلال التجسّد عن الخطية:

يحسب لابن المكين أنه كان مطَّلعًا على الحوار اللاهوتيّ السابق عليه والموازي له، وفي أماكن متفرقة على مستوى العالم، وقد انحاز بن المكين إلى فهم التجسّد مستقلًا عن الخطية بما يُسَمَّى التجسّد غير المشروط، فيما أسَّس الاتجاه الآخر التجسّد مرتبطًا بالخطية ومؤسَّسًا عليه، وقد نالت فكرة ابن المكين نقدًا، فقد ناقش توما الإكويني (1224– 1274) تلك المشكلة بإفاضة طويلة. قد رأى الثقل كله للمجادلات لصالح الرأس بأنّه، حتى وبمعزل عن السقوط «فإن الله رغم ذلك، سيتجسّد»، وقد اقتبس عبارة القديس أوغسطينوس في تجسّد المسيح: «في تجسّد المسيح، لابد من اعتبار أمور أخرى إلى جانب غفران الخطايا ورفعها» (في الثالوث، 13، 17). لكن الإكويني لم يقدر على العثور على أية شهادة محدَّدة سواء من الكتاب المقدّس أم من الكتابات الأبائيّة، عن هذا التجسّد مستقلًا عن السقوط، ومن ثم كان يميل إلى الاعتقاد بأن ابن الله لما كان قد تجسّد إنْ لم يكن الإنسان الأول قد أخطأ. «ورغم أنَّه الله يمكنه أنْ يتجسّد حتى من دون وقوع آدم في الخطية، فرغم ذلك، من الأكثر لياقة القول إنَّه إنْ لم يكن الإنسان قد أخطأ، لما تجسّد الله، إذا أنْ السبب للتجسّد كما ورد في الكتاب المقدّس هو خطية الإنسان الأول في كل النصوص».[50]

بالطبع هناك رؤى أخرى لتجّسد المسيح أشير هنا فقط إلى أنَّه في بواكير التراث العربيّ المسيحيّ ولا سيما في البدايات الأولى في مخطوط «تثليث الله الواحد» يقول المؤلف عن تجسد المسيح والغرض منه: «فخلَّص آدم وذريته من ضلالة إبليس، وأقام آدم من عثرته؛ وشفى قرحته، وجدّد بِلاه، وجبر صَدْعه؛ وأنقذه وذريته من يدي إبليس، وأبطل ظلمته وطغيانه، وفك رقابنا من عبادة الشيطان؛ وصلب الخطية بصلبه، وأمات الموت (الذي ورث آدم بالمعصية) بموته، وأظهر القيامة؛ وأقام الحق، والبر والهدى برحمته، ومنّه على الناس وعلى خلق الله، ونوره في الناس وبين لهم عظمته، وأعلمهم أن يعبدوا الله وكلمته وروحه، إله واحد ورب واحد».[51]

وقد اتبع بورا فنتورا (1221– 1274) مقارنًا الرأيين–

46 المرجع السابق.
47 المرجع السابق، 107
48 صموئيل طلعت أيوب، **التجسّد غير المشروط**، مرجع سابق، 14. يمكن الرجوع إلى جورج فلورفسكي، **التجسد والفداء موضوعات لاهوتيّة**، مرجع سبق ذكره، 109– 113.
49 المرجع السابق.
50 المرجع السابق.
51 من «**تثليث الله الواحد**» **مخطوط سينا عربي** 154، **ورقة** 107 **ب**– 108أ. من محاضرة لمارك سوانسون عن: **قصة انتصار الله الكلمة على الشيطان بالمكر**، محاضرة غير منشورة.

أحدهما لصالح التجسّد بمعزل عن السقوط، والآخر معتمدًا عليه، وخلص إلى: «أنّ كلا الرأيين يحفز النفس على التكريس بعدة اعتبارات مختلفة: الأول ورغم ذلك، والأكثر توافقًا مع حكم المنطق والعقل، ومع ذلك يبدو أن الأمر الثاني أكثر قبولاً لتقوى الإيمان».[52]

يقول د. رأفت موسى في تعليقه عن هذه الجزئية التي طرحها في محاضرته «المحتوى اللاهوتيّ لكتابات ابن المكين»: هي رؤية أحد أشخاص نتفق أو نختلف معها، توجد كتابات متقدمة ومتأخرة عليه، وعقيدة الكنيسة المحفوظة عبر القرون ويمكن أنْ تُمتَحن هذه الأفكار في ضوء هذا الطرح».[53]

بُنيت فكرة ابن المكين ومن سار على نهجه على سؤال افتراضي وهو: ماذا لو لم يخطئ أدم؟ ورؤيته يمكن أن تمتحن في ضوء الكتاب المقدس، وفكر الآباء، وقوانين الإيمان، ثم مفهوم الزمن، وفهم تدرج الإعلان الإلهيّ، ثم الربط دائمًا بين التجسّد والفداء. يمكننا أن نتمتع بجود الله ومحبته بغفران الخطايا في الوقت الذي ننعم فيه بالاتحاد مع الله وسكنى الروح القدس وضمان الحياة الأبديّة.

ومن رحلة الفكرة -عرضًا ونقدًا- في العصر الوسيط إلى التفكير اللاهوتيّ في العالم المعاصر، نجد الفكرة بطرح مختلف، يتحدَّث اللاهوتيّ المصلح السويسريّ كارل بارت (1886- 1968) عن أسبقية المصالحة على الخليقة وليس فقط عن السقوط وذلك لأنَّ يسوع المسيح هو كلمة الله الأزليّ.[54] ويبني هذه الفكرة على أنَّ الغرض من السؤال لماذا صار الله إنسانًا؟ تكون الإجابة هي المصالحة. وبارت لا يضع عقيدة المصالحة بعد عقيدة الخطية كما يفعل علماء اللاهوت التقليديون. كأن الخطية هي السبب لعمل المصالحة هذه. إنَّه يقلب هذا النظام. فالخطية لم تكن السبب في هذه المصالحة ولكنها كانت فرصة فقط. والهدف الأصلي من المصالحة ليس هو علاج الخطية ولكن تأسيس العهد الجديد الذي كسرته الخطية. وهذه الأخيرة لا تشغل إلا المكان الثاني في خطة المصالحة. إذًا لقد صار الله إنسانًا لأنَّه يريد أنْ يكون مع الإنسان. فقد اختاره لكي يكون شريكًا له في العهد، وهكذا ولأجل هذا العهد الذي قطع قبل تأسيس العالم، قام يسوع بعمل المصالحة، وهذا يرينا العلاقة القوية والمهمة بين العهد والمصالحة في مفهوم بارت[55].

ستبقى قضية التجسّد في ذاتها وفي محاولات فهمها تثير دائمًا الاندهاش والتفكير والتحليل والشكر على نعمة الله التي لا تُعَد ولا تحصى فمن خلال التجسّد «وَبِالإِجْمَاعِ عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ» (1 تي 3: 16)، عبَّر آباء الكنيسة إنَّ اللهَ صار إنسانًا «لكي يصير الإنسان إلهًا»[56] وبذلك ننشد مع الرسول بولس «مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ» (أف 1: 3). ومع الرسول بطرس: «سِمعانُ بُطرُسُ عَبدُ يَسوعَ المَسيحِ ورَسولُهُ، إِلَى الَّذينَ نالوا معنا إيمانًا ثَمينًا مُساويًا لنا، ببرِّ إلهنا والمُخَلِّص يَسوعَ المَسيح: لتَكثُرْ لكُمُ النِّعمَةُ والسَّلامُ بمَعرِفَةِ اللهِ ويَسوعَ رَبِّنا. كما أنَّ قُدرَتَهُ الإلهيَّةَ قد وهَبَتْ لنا كُلَّ ما هو للحياةِ والتَّقوَى، بمَعرِفَةِ الَّذي دَعانا بالمَجدِ والفَضيلَة، اللَّذَينِ بهما قد وهَبَ لنا المَواعيدَ العُظمَى والثَّمينَةَ، **لكَيْ تصيروا بها شُرَكاءَ الطَّبيعَةِ الإلهيَّة**، هارِبينَ مِنَ الفَسادِ الَّذي في العالَمِ بالشَّهوَة» (2 بط 1: 1- 4).

في نهاية مُقَدِّمة كتاب الحاوي كتب المحقِّق هذه الكلمات عن ابن المكين: «رحمة الله عليك أيها الجندي التقي، سلام لروحك الطاهرة، وسلام لذكراك العاطرة، بل سلام على من اتبع خطاك الباهرة».[57] وأختم حديثي كما ختم ابن المكين كلامه بالقول: ولله المنَّة والحمد والفضل دائمًا أبدًا سرمدًا، آمين.

52 المرجع السابق، 108.

53 رأفت موسى، رأفت موسى، **المحتوى اللاهوتيّ لكتابات ابن المكين**، مرجع سبق ذكره.

54 Geoffrey W. Bromiley. Introduction to the Theology of Karl Barth (Michigan, Grand Rapids: Eerdmans, 2001), 167-77.

55 حنا الخضري، المسيح إله أم إنسان؟ قراءة في فكر كارل بارت (القاهرة: دار الثقافة، 2014)، 77- 78.

56 الأب باسيليوس، **ماهية عقيدة التجسّد في الفكر اللاهوتيّ الأرثوذكسي**، متاح على https://www.alsiraj.org تمَّ الاطلاع عليه في 25 نوفمبر 2020.

57 ابن المكين، **مختصر البيان في تحقيق الإيمان**، مرجع سبق ذكره، 4.